الدولة العثمانيَّة وانهيار الحضارة المصرية والإسلاميَّة

ماذا حدث لمصر عندما صارت ولاية عثمانية ؟

لقد أصيبت الشعوب الإسلاميَّة في مراحل الدولة العثمانيَّة الأخيرة بالتبلد وفقد الإحساس بالذات، وضعف الإيمان ، فاستبدلت الخرافات والبدع بالإيمان الصحيح ، واستبدلت الدَّجَل والبحث في المُغَيَّبات بالعلم والبحث في أسرار الكون .

لقد انحرف سلاطين الدولة العثمانيَّة المتأخرين عن شرع الله فلم يقوموا بعبادة الله على الوجه الصحيح الذي يطهِّر القلب ويزكِّي النفس ويسمو بالأخلاق ، ولم يأخذوا في أسباب العلم النافع الذي يُعَمِّر الأرض ويصلحها ، ولم يسيروا في البلاد التي حكموها سير الخلفاء الراشدين بل ساروا فيها سير الحجاج بن يوسف الثقفي فكثرت الاعتداءات الداخليَّة بين الناس وتعرَّضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تَعَطُّل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن ، وبلايا تولَّدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والإنجليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصَّلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمَّة العثمانيَّة، وحرموا التمكين ، وأصبحوا

في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب ، وضاعت الديار، وتسلط الكفار .

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلَّط الله عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلَّط الله الغرب على المسلمين في الدولة العثمانيَّة .

إن الذنوب التي يهلك الله بها الدولة ، ويعذب بها الأمم قسمان :

١- معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به .

٢- كفر النعم بالبَطَر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغني والثروة فهذا كله من الكفر بنعمة الله ، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وأمراؤهم . (١)

ولمَّا دبَّ في الدولة العثمانيَّة الوَهَن حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ، ومحاولة تأسيس أُسَر محلية كالمماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد عليّ في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، القراملیون في ليبيا . (٢)

وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانيَّة ساهم في إضعافها

---

(١) انظر: دولة الموحدين لعلي محمد الصلابي، ص١٧٠.
(٢) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغي، ص٩٤.

ثم سقوطها .

الدولة العثمانيَّة والمشروع الصهيوني

لقد ساعد ضعف الدولة العثمانيَّة وتراجعها المستمر على إتمام المشروع الصهيوني ؛ فلقد اضطرت الدولة العثمانيَّة إلى تقديم التنازلات القانونيَّة الكثيرة مثل: الامتيازات الأجنبيَّة، ويمكن القول بأن نظام الامتيازات الأجنبيَّة هو المسئول عن تحويل يهود الدولة العثمانيَّة والعالم الإسلامي ككل إلى جماعات وظيفيَّة تابعة لدول أجنبيَّة تدين لها بالولاء وتتمتَّع بحمايتها. وحاولت الدولة العثمانيَّة التخلص من هذا النظام أو تقليل أضراره دون جدوى إذ أن نظام الامتيازات كان جزءاً لا يتجزأ من الهجمة الإمبرياليَّة الغربيَّة على الشرق، وساعد على إحكام قبضة الإمبرياليَّة على دول العالم العربي وعلى تحويل بنيتها السياسيَّة والاقتصاديَّة إلى بنية تابعة .

وقد أُلغي نظام الامتيازات في مصر بمقتضى معاهدة مونتريه عام ١٩٣٧م التي نظَّمت فترة انتقالية (بقيت خلالها المحاكم المختلطة) حتى عام ١٩٤٩م مما نتج عنه اتساع الثغرة التي سمحت للفائض البشري اليهودي بالتسلل .

ومن المعروف أن الدولة العثمانيَّة كانت ترحب بهجرة اليهود إليها منذ عملية طردهم من أسبانيا. ومع تَزايُد تَدخُّل الدول الأجنبيَّة، وتَزايُد الأطماع في فلسطين، بدأت الدولة العثمانية تحاول أن تمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين (مع استمرار فتح الأبواب خارجها).

بل فتحت باب الهجرة أمام اليهود إلى فلسطين شريطة أن يتجنسوا بالجنسية العثمانية، أي شريطة أن يتحولوا من عنصر استيطاني (قتالي) غريب إلى عنصر وطني محلي (وكانت هذه هي السياسة الرسميَّة حتى عام ١٩١٤).

وكانت الدول الكبرى تتدخل لحمل الدولة العثمانية على السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين وملكية الأراضي فيها، فاضطرت الدولة العثمانية إلى إصدار قرار عام ١٨٦٧م بمنح الأجانب حق ابتياع الممتلكات في فلسطين، وهو القرار الذي استفادت منه الجمعيات التبشيرية المسيحية والجماعات الاستيطانية المسيحية مثل فرسان الهيكل، كما استفاد منه المستوطنون الصهاينة في مراحل لاحقة. وحينما حاولت الدولة العثمانية منع اليهود من امتلاك العقارات في فلسطين (عام ١٨٨٤م).

ادَّعت الدول العظمى أن هذا خرق لنظام الامتيازات. وكان قناصل الدول الغربية يستخدمون نفوذهم لتسهيل عملية استيطان اليهود. وحين صدرت قرارات تحرِّم هجرة اليهود (غير العثمانيين) عام ١٨٨٨ ثم عامي ١٨٩١ و١٨٩٨، عبَّرت الدول الغربية عن استيائها وساعدت المهاجرين على التحايل على هذه القوانين .

وحينما اتُخذ قرار تقسيم أسلاب الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى ، اتخذ أيضاً القرار بتأييد تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين

ومن ثم صدر وعد بلفور. وانتهت المسألة الشرقية مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية . (١)

كانت هذه نُبْذة يسيرة عن الدولة العثمانيَّة التي قضت على الحضارة الإسلاميَّة وساهمت في إنجاح الحركة الصهيونيَّة الشيطان الأكبر الذي يحارب العرب والمسلمين .

أسباب ضعف الحضارة الإسلامية

لقد تضافرت عدة عوامل أدَّت إلى تراجع الحضارة الإسلاميَّة وضعفها وعلى رأس تلك العوامل الاحتلال العثماني . فمنذ أن وطئت قدم العثمانيين أرض العروبة والإسلام وحل بها الخراب والدمار " حيث صارت البلاد مسرحاً للفوضى والاضطراب نتيجة تنازع الهيئات التي تقتسم الحكم فيها ، وسارت الدولة على سياستها التقليدية في تغيير الباشوات خوفاً من جنوحهم إلى الاستقلال تحقيقاً لأطماعهم الخاصة ، كما اتسم الحكم العثماني في بلاد المشرق العربي بالرجعيَّة وشمل البلاد التأخر إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة اقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن وجمع الضرائب والفصل في الخصومات أمَّا ما عدا ذلك من خدمات عامة فقد أهملت ولم تعتبرها الدولة من بين مسئولياتها وتركتها للأفراد والجماعات ، ولذلك ساءت أحوال الشعوب العربية اقتصاديّاً . " (٢)

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٤ ج٢ الباب الثالث الدولة العثمانية .

(٢) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣١ .

وإن المرء ليأخذه العجب من كتَّاب المقررات المدرسيَّة المصريَّة الذين يطلقون على الاحتلال العثماني الأجنبي اسم " الفتح العثماني " !! كما يطلقون على الحكم العسكري العثماني المستبد " الخلافة العثمانية " فكأن البلاد العربيَّة كانت بلاد كفر وإلحاد فجاء العثمانيون ففتحوها ونشروا فيها الإسلام !!

وهم بذلك يسوُّون بين الفتوحات التي قام بها صحابة رسول الله لتحرير الشعوب من قبضة الاحتلال الأجنبي الغاشم (الفرس والروم) وبين هذا الاحتلال الأجنبي العثماني الغاشم ، كما يسوُّون بين الأخلاق الإسلاميَّة النبيلة التي اتصف بها صحابة رسول الله وبين الأخلاق اللا إنسانية التي اتصفت بها الطغمة العسكريَّة العثمانيَّة المستبدة كما يدنسون اسم الخلافة الإسلاميَّة الراشدة بإطلاقه على هذا الحكم العسكري المستبد .

يقول د. زكي البحيري [1] : " إن معنى قبول فكرة أن مجيء العثمانيين كان فتحاً ونصراً عظيماً في عقول تلاميذنا يعني ترسيخ فكرة قبول كلِّ غازٍ يُوَلَّى علينا، والرضوخ لكل حاكم يحكمنا مهما كانت أهدافه ، أمَّا أن يعرف تلاميذ وطلاب مدارسنا أن مجيء العثمانيين كان غزواً فإنه يعني أن وجودهم لم يكن الوضع الأمثل الذي كان يجب أن تقبله شعوبنا العربيَّة ومنها مصر ؛ فالعثمانيون حكموا شعوبنا لصالح سلاطينهم ورعيَّتهم الخاصَّة وعوَّقوا بذلك مسيرة شعوبنا . " [2]

(١) أستاذ مساعد بقسم المواد الاجتماعيَّة بكلية التربية جامعة المنصورة .
(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " دار نهضة الشرق ص ٤٧ .

والمثير للدهشة أن مبررات هؤلاء الكتَّاب الذين يدافعون عن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وحجَّتهم الرئيسة هي أن العثمانيين هم الذين حموا بلاد الإسلام من الدول الأوربيَّة بلاد الكفرة !! ونسي هؤلاء – أو تناسوا – أن الحروب الصليبية هي التي أيقظت روح الجهاد الإسلامي ووحَّدت الأمَّة بعد فترة من التمزُّق ونسي هؤلاء أن هذه الحروب هي التي ولَّدت أعظم من حكم وعدل وقاد وانتصر – بعد الخلفاء الراشدين – نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي .

فلو أن الغزو العثماني العسكري الغاشم لم يحطَّ على الأمَّة العربيَّة الإسلاميَّة كقطع الليل المظلم لاستمرَّت النهضة الإسلاميَّة ولما غرقت البلاد الإسلاميَّة في بحر الظلمات العثماني .

استغلال العثمانيون اسم الخلافة الإسلامية

لقد استغلَّ العثمانيون اسم الخلافة الإسلاميَّة التي يعلمون مدى تأثيرها في نفوس المسلمين الذين كانت العاطفة الدينيَّة لديهم أقوى من أي رابطة أخرى ليقضوا بها على حضارة الإسلام ويحبطوا بها كل حركة تحرر " كان الحكم العثماني سيئاً فهو حكم أجنبي جامد متخلف أسدل على الشرق العربي أستاراً من التخلف والتأخر في كافة المجالات ونواحي النشاط ، ومع ذلك فإن العرب في المنطقة لم يحاولوا الانتفاض عليه ويرجع ذلك إلى الرابطة الدينيَّة التي ربطت العرب بالعثمانيين فإن بلاد المسلمين كانت تعتبر دولة واحدة يطلق عليها (دار الإسلام) ولما كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية حملت لواء الحرب أول ما حملت على الدول الأوربيَّة (بلاد الكفر) ، وكانت العاطفة الدينية في

تلك القرون من أقوى الروابط ، وكانت العاطفتان الدينيَّة والوطنيَّة ممتزجتين بحيث كان من الصعب الفصل بينهما ، ولم يكن للعروبة كيان منفصل عن الإسلام وإلى ما بعد قيام الحرب العالميَّة الأولى وفي مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ظل هذا الرباط يشد جماهير كثيفة من العرب إلى الخلافة الإسلاميَّة " (١)

والذي يؤكد ارتباط العثمانيين الزائف بالخلافة الإسلامية واستغلالهم المقيت للدين الإسلامي تراجع الإسلام في عهدهم كدين حضاري نهضوي يجعل عمارة الأرض وإصلاحها عبادة ، والرقي بحياة الناس ورفع الظلم عنه بشتى أنواعه : (السياسي ، الاجتماعي ، الاقتصادي) في مقدمة أولويات خليفة المسلمين ، " وَإِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ " لحساب المفهوم السلبي للإسلام كدين يدعو إلى الزهد في الدنيا والتفرُّغ للعبادة والخضوع للحاكم وإن جلد ظهرك وأخذ مالك !!

لقد حفلت مصر تحت حكم العثمانيين بفرق المتصوِّفة وطوائفهم ، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولائمهم ، والمساجد والزوايا باجتماعاتهم ، وانتشر شيوخهم في الريف والحضر ، وتغلغل نفوذهم في المدن ، وقد انتهت بعض الدراسات الجامعيَّة إلى نتيجة مؤدَّاها أن الحياة المصريَّة خلال هذا العصر خاصة كانت تدين لتعاليم الصوفيَّة أكثر مما تدين لقواعد الدين أو حتى لأثر الحضارة الأوربيَّة التي هبَّت عليها بعد ذلك . (٢)

---

(١) د . محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٥٣ .

نتائج الاحتلال العثماني لمصر

لقد كان العثمانيون السبب ليس فقط في تخلف الأمَّة الإسلاميَّة وإفساد الدين الإسلامي كدين حضاري تقدمي بل كانوا السبب أيضاً في وقوع بلاد الإسلام في براثن الاحتلال الأجنبي : الإنجليزي والفرنسي والإيطالي لسنوات طويلة مما صيِّر الأمَّة الإسلاميَّة إلى هذا الوضع المهين في الوقت الراهن

أليس التخلف الحضاري والعزلة اللذان فرضهما العثمانيون على البلاد كانا هما السبب في الاحتلال الفرنسي ؟

والحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد الإسلام وصانعة حضارته ، وإن كان في العثمانيين خيرٌ لكانوا تعاونوا مع إخوانهم المسلمين في إقالة عثرتهم ومواصلة نهضتهم إما الذي حدث فكان استعماراً بغيضاً استعبد الشعوب واستغل مواردها وجردها من عوامل نهضتها فأول شيء عمله السلطان سليم الأول أبطل النقود العربية القديمة " وضرب نقوداً جديدة تحمل اسمه ولكنها كانت أخف من القديمة بمقدار الثلث فخسر الناس في ذلك ثلث أموالهم " (١)

أهذا هو الفتح العثماني ؟! أهذه هي الخلافة الإسلاميَّة ؟!

إن السلطان سليم الأول اعتبر نفسه مالكاً لأراضي مصر ، وبذلك كان صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، وأنَّ المماليك

---

(١) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " الجزء الثالث مرجع سابق ص ٨١٦

بسطوا أيديهم على الكثير من أراضي مصر فصارت ملكاً لهم ، وباقي الأراضي موزَّع بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف ، وأن الفلاحين كانوا يملكون النزر اليسير من الأراضي ينتفعون بها ويتوارثونها ، لكن ملكيتهم لها متعلِّقة على دفع الضرائب والإتاوات ، وهذه الضرائب والإتاوات تدفع للملتزمين ، والملتزمون هم الملاك الذين يأخذون القرى " التزاماً " أي يتصرَّفون فيها تصرُّف المالك في ملكه على أن يلتزموا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب . (١)

ولم يكتف العثمانيون وعمالهم من المماليك بالاستيلاء على أرض مصر وجني ثرواتها من دون المصريين بل أصدر سليم الأوَّل أمره " بترحيل طوائف من أعيان الناس ، ما بين قضاة ونواب قضاة وأكابر من المسلمين والمسيحيين واليهود والتجار والورَّاقين إلى اسطنبول ليقيموا بها إقامة جبريَّة ، ليكونوا أشبه بالرهائن من ناحية ، لكي يألفوا الحياة العثمانية في عاصمة الدولة " (٢)

أ ليس ذلك سبياً كالسبي البابلي والآشوري والروماني ، ولم يكتف سليم الأوَّل بذلك بل عمل على تجريد المسلمين من خيرة علمائها وعمَّالها " وكان من بين الذي قضى السلطان سليم بتسفيرهم إلى اسطنبول عدد كبير من أرباب الصنائع المهندسين والبناءين والنجارين والمرخمين والمبلطين ، وطائفة من الفعلة ، وقيل في تعليل هذه الهجرة الإجبارية

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " ط٥ دار المعارف ص ٥٢٧ .
(٢) نفسه ص ٨١٦

لأصحاب الحرف ، أن السلطان سليم أراد أن ينشئوا له مدرسة في اسطنبول مثل مدرسة الغوري . وأيّاً كان الغرض من جمعهم وتسفيرهم ، فقد ترتب على هذه العملية تعطيل خمسين صناعة على ما يقول ابن إياس " (١)

وكانت مصر خلال هذا العهد ترزح تحت الحكم العثماني المباشر ، وكان السلطان هو الذي ينصب الباشا ، أما خزانة مصر فكانت مرتبطة بخزانة السلطنة مباشرة . وبالجملة إن مصر لم تكن تتمتع تحت حكم العثمانيين بالاستقرار من جراء ما كان ينشب فيها بين القوى الثلاثة من فتن . كما أن الباشاوات أنفسهم لم يكونوا مطمئني النفوس على بقائهم في الحكم لأن أمر تثبيتهم أو نقلهم كان يرجع إلى قدر ما لكل من سند بين حاشية السلطان . فكان هَمُّ الباشا جمع المال لرشوة هذه الحاشية للبقاء في الحكم مدة أطول مما أضَّر بمصالح البلاد والعباد إضراراً بالغاً . وقد بلغ عدد هؤلاء الباشاوات ٧٦ والياً في حقبة قدرها ١٩٠ سنة فقط .

هذا وكانت ولاية مصر خلال هذا العهد عوناً للسلطان عند كل أزمة، وكثيراً ما سيَّرت مصر الحملات إلى الأقطار التي تثور على السلطنة كاليمن وسوريا والحركة المهدية في السودان ، والحركة الوهابيَّة في المملكة العربيَّة السعوديَّة ؛ وكثيراً ما جنِّدت النجدات مساعدة للدولة على أعدائها ، كما فعلت في حرب فارس.

---

(٣) نفسه ص ٨١٧

لقد قام الاحتلال العثماني بأعمال دمَّرت فيها الحضارة الإسلاميَّة ، وقضت على الأمَّة العربيَّة منها :

١- إغلاق المدارس فانشر الجهل .

٢- ترحيل العلماء البارزين ، والصناع المهرة ، والفنانين المبدعين من بلادهم العربية ، وتوطينهم في استانبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية لكي يبنوا لهم فيها حضارة للدولة العثمانيَّة التي كانت تتسم بالقوة وتفتقر إلى الحضارة والعلم .

٣- استنزاف الموارد الاقتصاديَّة ، وحرمان بلاد المسلمين منها .

٤- العمل على القضاء على اللغة العربيَّة لغة الإسلام وحضارته ، لحساب اللغة التركيَّة ، وهو ما عرف بالتتريك : أي جعل اللغة التركيَّة لغة رسميَّة للبلاد الإسلاميَّة الخاضعة للحكم العثماني.

٥- إطلاق أيدي ولاتهم في البلاد العربية في أموال الناس يتخوضون فيها بالسلب والنهب . مما تترتب على ذلك انتشار الفوضى والفزع وعدم الاستقرار .

١٠- استبداد الحكام ، واستخدام العنف في مقاومة معارضيهم .

لهذه الأسباب وغيرها غرق العرب والمسلمون في مستنقع التخلف والجهل ، وأصبحوا صيداً سهلاً لبلاد أوربا الإمبرياليَّة الناهضة .

***